

## المونية وفكرة دمج الأديان

قضية التوحيد هي قضية الإسلام والمحافظة على نصاعة الشخصية الذاتية لهذا الدين أولى أولوياته

تحدثنا في الحلقة السابقتين عن ظاهرة المذاهب الدينية الحديثة في الغرب بشكل عام ثم عن المونية بشكل خاص وتحدث في هذه الحلقة عن فكرة توحيد أو دمج الأديان التي تتبناها المونية . . ولا بد من التمييز في هذا الصدد بين عدة مفاهيم أو دعوات متزامنة يسهل الخلط بينها بل وربما تعمدت الحركات المشبوهة تمييع الفروق بالمراوحة بينها وهي : توحيد الأديان ، تقريب الأديان ، الحوار بين الأديان ، التعايش بين أتباع الأديان . وباختصار يمكن القول إن توحيد الأديان أو دمجها هو عملية سلطوية بمعنى أنها تستند إلى سلطة حيث كان يقوم بها قديما الكهنة أو الملوك متلبسين بسلطة دينية أما الحوار بين الأديان فهو - نظريا على الأقل - عملية انفتاحية قد يكون الهدف منها عقيدا لأجل تقريب الأديان أو غير عقيدي لأجل تحسين مستوى التعايش بين أتباع الأديان . وستحدث اليوم عن فكرة توحيد الأديان بشكل خاص مرجئين الحديث عن الحوار والتقريب والتعايش بين الأديان وأتباعها إلى حلقة قادمة إن شاء الله .

رغم إن فكرة توحيد الأديان قد تبدو صرعة جديدة جاءت بها المونية إلا أنها ظاهرة قديمة في تاريخ الأديان . ويطلق باحثو الأديان اسم الألتقاطية (الأكلكترزم) على عملية دمج عناصر مختلفة من أديان مختلفة دون محاولة إيجاد ربط أو تنسيق منهجي بينها ويستخدم نفس المصطلح في الفلسفة كذلك بينما يسمون عملية الدمج هذه مع محاولة إيجاد تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقطة المختلفة بالتلفيقية (السنكرترزم) . والعناصر الملتقطة قد تكون

معتقدات أو معبودات أو طقوسا . وغالبا ما تكون نتيجة العملية امتصاص العناصر الملتقطة ضمن أحد الأديان الأصلية الذي سيثبت قوته أمام العناصر الأخرى فيهما ويتمثلها في بنائه على حساب انحراف أو تطوير في ذاته أو ظهور دين جديد أو مجرد فرقة جديدة في الدين الأصلي .

ويرى باحثو الأديان أن الألتقاطية والتلفيقية ظاهرة عامة في الأديان الطوطمية والوثنية القديمة والمعاصرة منها عند من يسمون بالشعوب البدائية في مجاهل استراليا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية . ذلك أن اختلاط القبائل والأفراد يؤدي عادة وبشكل تلقائي إلى «تبنى» معبودات القبائل الأخرى تجنباً لغضبها وطلباً لرضاها . وقد استقصى الأستاذ العقاد في كتابه (الله) العقائد في دول الحضارة القديمة ويلاحظ القارىء أن ظاهرة الألتقاطية تشملها جميعا ابتداء بمصر ومرورا بالهند والصين وفارس وبابل وانتهاء باليونان . ولعل «مون» قد استقى فكرة توحيد الأديان من العقائد القديمة والتي ما تزال مسيطرة في الشرق الأقصى . ولا شك أن الديانات الشامانية والهندوكية والبوذية والطاوية والشتوية في صورها المعاصرة هي ديانات تلفيقية بالمعنى المذكور آنفا .

وللتمثيل على ظاهرة الألتقاطية ننقل ما ذكره الأستاذ العقاد عن عقائد اليونان في كتابه المذكور: (ولما شاعت بين الإغريق عبادة أرباب الأوليمب، كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة وتنظيم العبادات، فالآله (زيوس) هو الآله (ديوس) المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة . . . والربة أرتيمس ومثلها أفروديت هي الربة عشتار اليمانية البابلية ومنها كلمة ستار أي النجمة . والرب أدونيس هو أدوناي العبري وبعد فتح مصر أيام الإسكندر أضافوا عبادة سرايبس وهو اسم مركب من أوزوريس وأيبس المعبودين المصريين . . .)

وكان الرومان يضيفون آلهة الأقوام المغلوبين إلى آلهتهم بشكل منتظم استرضاء للأقوام المغلوبين ودفعا لسخط آلهتهم . وعندما رأى «قسطنطين» الأكبر وهو أمبراطور روماني انتشار وقوة النصرانية في الأمبراطورية رغم الاضطهاد الذي مارسه الأمبراطورية الرومانية ضدها اعتنق هو شخصيا الديانة

النصرانية وإن بقي كذلك وحتى وفاته كاهنا أعلى لعبادة الشمس التي لا تقهر وهي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية. ويرى «أرنولد توينبي» في كتابه تاريخ البشرية (الجزء الثاني من الترجمة العربية ص ٢١) أن «قسطنطين» اعتبر (الشمس) هو المسيح وقد دعم «قسطنطين» في المجمع المسكوني الأول الذي عقد في نيقية الأقلية التي قررت ألوهية المسيح على غرار تأليه الأباطرة الرومان. وهكذا يكون «قسطنطين» قد نجح أخيراً في حل الأشكال الذي منع في البداية من دمج النصرانية في مجمع الأديان الرومانية وهو قول المسيح أعط ما لقيصر وقيصر وما لله لله وهي مقولة رغم أنها تبدو في ظاهرها حلاً وسطاً إلا أنها كانت تعني رفض الاعتراف بألوهية الأباطرة (راجع حكمة الغرب لـ «برتراند رسل» - سلسلة عالم المعرفة). وذلك بأن أصبح الأباطرة أنفسهم هو الذي يقرر العقيدة. وقد جلس «قسطنطين» وسط الأقلية المؤهلة للمسيح وأعطاهم خاتمه وسيفه وصولجانه وقال قد سلطتكم اليوم على مملكتي فباركوه وقدموه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية واحمه كما يقول ابن البطريق.

وقد قام اليهود بمحاولة التقاطية مبكرة يقول تعالى: ﴿وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ [الأعراف: ١٣٨] - وقد عكفوا على عبادة آلهة الأقوام الآخرين منذ عهد القضاة (سفر القضاة - الأصحاح الثاني: وتركوا الرب وعبدوا البعل والعشتاروت. . فأقام الرب عليهم قضاء. . ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا بل فجروا باقتنائهم آلهة أخرى وسجدوا لها) وفي ظل المملكة عبت إسرائيل العجل ففي مملكة إسرائيل صنع مؤسسها «يربعام» عجولين من ذهب وقال لشعبه هذه آلهتكم تفادياً من السماح لشعبه بالذهاب إلى أورشليم واستمر خلفاؤه في صنع الشر في عيني الرب، وعبادة البعل والعشتاروت وأقاموا مشارف وأنصاباً وغابات على كل ربوة عالية وتحت كل شجرة خضراء لعبادة آلهة الأقوام الأخرى. ولم تكن الممارسات الدينية في مملكة يهوذا بأفضل منها في مملكة إسرائيل فأقاموا هم أيضاً المشارف والأنصاب. . وربما قام أحد ملوكهم بإزالة بعضها فلا يلبث خلفه أن يعيدها. والتصور اليهودي للإله كما جاء في العهد

القديم لا يختلف كثيرا عن التصورات التي كانت سائدة في تلك الأيام بين الأقباط الأخرى فالله - تعالى - ينادي آدم في الجنة ليعلم أين هو ويستفسر إن كان أكل من الشجرة المحرمة فيهرب آدم وقد سمع حسيس الله - تعالى عن ذلك - بين أشجار الجنة كما يصف العهد القديم (مباراة في المصارعة) بين الرب وبين يعقوب عليه السلام وهكذا (راجع كتاب التوراة للدكتور مصطفى محمود).

وكانت ديانة مشركي العرب التقاطية كذلك فقد استوردوا العقائد والأوثان من الشام واليمن وتذكر الروايات أن عمرو بن لحي الخزاعي جلب معه (هبل) من الشام ولعل العزى هي ابليس المصرية ومناة هي منوتن النبطية . وقد طعموا بذلك كله ديانة إبراهيم عليه السلام التي احتفظوا منها باسم (الله) وبتقديس الكعبة وبعض مراسم الحج وقد جمعوا حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنما تمثل آلهة كل القبائل العربية ولما أعادوا بناء الكعبة بعد حدوث السيل الذي هدمها مستعينين بنجار رومي وأخشاب سفينة رومية كانت قد غرقت وقذف البحر أخشابها إلى شاطئه جده لم يمانعوا في وضع صورة المسيح وأمه داخل الكعبة بناء على مشورة النجار الرومي (راجع تاريخ العرب في الإسلام لـ جواد علي) ولذلك فإنهم تقدموا من الرسول ﷺ بعرض لدمج ديانتهم بالإسلام . ذكر الواحدي في كتابه أسباب النزول أن سورة الكافرون نزلت في رهط من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا وتبع دينك . تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره فأنزل الله تعالى ﴿قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين﴾ فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة فيشوا منه عند ذلك .

وهكذا كان رفض الإسلام لهذه المحاولة (الدمجية) قاطعا رغم ظروف الاضطهاد التي كان يعاني منها المسلمون في ذلك الوقت والتي تجعل البعض

يراهما فرصة مغرية في ظروف مشابهة ذلك أن قضية التوحيد هي قضية الإسلام حقا وأن الحفاظ على نصاعة الشخصية الذاتية لهذا الدين هي أولى أولوياته .

ولعل للإلتقاطية إغراء دائما على النفس الإنسانية . روى الترمذي بسنده عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ: «سبحان الله هذا كما قال قوم موسى ، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة والذين نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم» وقد كان لهذا التعليم النبوي أثره الحاسم في نفوس الصحابة فقد سدوا الطريق أمام كل ما يمكن أن يكون من شأنه تشويه أو تلوين صورة التوحيد النقية لهذا الدين ومن ذلك اقتطاع عمر بن الخطاب لشجرة الرضوان عندما رأى بعض المسلمين يخصونها بالصلاة عندها . وكان لتعليم آخر من تعاليم الرسول ﷺ دوره القاطع كذلك في منع كل إمكانية للتلقي العقيدي من غير كتاب الله وسنة رسوله بحيث يظل نبع العقيدة في هذا الدين صافيا تماما . روى الطبراني وأبو يعلى والبزار وأحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله وعبد الله بن شداد وعمر بن الخطاب وعبد الله بن ثابت وأبي الدرداء أن عمر بن الخطاب طلب من يهودي من بني قريظة أن يكتب له جوامع من التوراة فجعله في أديم ثم جاء به رسول الله ﷺ فسأله ما هذا الذي بيدك يا عمر فقال كتاب نسخته ليزداد به علما إلى علمنا فغضب رسول الله ﷺ وتغير وجهه وقال: «امتهوكون انتم كما تهوكت اليهود والنصارى . لقد جئتمكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل» ومتهوكون أي متحيرون في دينكم والبيضاء النقية هي ملة الإسلام قال تعالى: ﴿وذلك دين القيمة﴾ [البينة] - أي دين الملة القيمة .

وبهذا يتضح أن لا مجال في الإسلام لأية محاولة التقاطية أو تلفية .

فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للإنسان ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩] وهو الخضوع لشرعية الله عز وجل الناتج عن الإيمان بأنها من عند

الله خالق الإنسان الذي يشرع له ما يعلم أنه يصلح له . ﴿ومن أحسن من الله حكماً﴾ [المائدة: ٥٠] ومحمد رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ [الأحزاب: ٤٠] وشريعته خاتمة الشرائع وهي ناسخة لكل ما قبلها مهيمنة عليها ﴿وأزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ [المائدة: ٤٨] . ومكتملة اكتمالا ذاتياً تاماً ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣] ، وعليه فالرسالة المحمدية هي خطاب الله الأخير للإنسان حتى يرث الله الأرض وما عليها وهذا يقتضي بدوره حفظ نصوصها حفظاً مطلقاً ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] .

وقد بين القرآن الكريم أن الناس لن يجتمعوا في هذه الحياة الدنيا على دين واحد ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨] ، ودور الأمة المسلمة هو في الخلافة عن رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ [الحج: ٦٧] ، وفي الجهاد في سبيله ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ [الحج: ٧٠] . صدق الله العظيم .

---

نشرت في جريدة اللواء ١٩٩٢/٣/٢٥